



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>

Dr. Wisam Muhammad  
Abboud Al-Rubaiee

Dr. Marwa Ali Hussein

Wasit University/  
College of Education  
for Human Sciences

Email:

waboud@uowasit.edu.iq

Keywords:

Development , woman,  
protection , literature,  
empowerment, caliphs  
Abbasid, society,  
politics .

Article info

Article history:

Received 5.Jun.2024

Accepted 4.Jul.2024

Published 15.Aug.2024



## Empowering women in Abbasid poetry (women of the palace as an example)

### A B S T R A C T

When we looked at Abbasid poetry, we found many examples that showed great development in protecting the Abbasid woman, empowering her, and glorifying her status, As a result, the research explained to us the high status of the Abbasids politically and socially and how this was represented in poetry, which revealed to us the secrets of the souls of kings and poets and expressed the great influence that women possessed in the court of the Abbasid caliphs, This development was not limited to the political aspect, but rather extended to the social aspect, which The status of women changed positively, She enjoyed unprecedented freedom, joined the kingdom of writers, competed with poets and excelled at them in what they used to excel at, and the development in empowerment led to enhancing women's self-confidence. Which resulted in cultural and scientific development that gave women their rights and granted them most of their desires and wishes.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol56.Iss1.3951>

تمكين المرأة في الشعر العباسي ( نساء البلاط أمودجا )

م.د. مروة علي حسين القريشي

م.د. وسام محمد عبود الربيعي

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

### الخلاصة

حين اطلعنا على الشعر العباسي وجدنا الكثير من النماذج التي أعربت عن تطور لا يُستهان به في حماية المرأة العباسية وتمكينها وتعظيم قدرها؛ ونتيجة لذلك سطر البحث الضوء على علو شأن العباسيات سياسياً واجتماعياً وكيفية انعكاس ذلك في الشعر الذي أمارت اللثام عن خفايا نفوس الملوك والشعراء وكشف عن ما امتلكته النساء من نفوذ كبير في بلاط خلفاء بني العباس، ولم يقتصر هذا التطور على الجانب السياسي وإنما تعداه إلى الجانب الاجتماعي الذي تغيرت فيه منزلة المرأة تغيراً إيجابياً؛ إذ حظت بحرية غير مسبوقة، وانخرطت في سلك الأدباء وجارت الشعراء وبتتهم فيما اعتادوا

التفوق فيه عليها، كما أدى التطور في التمكين إلى تعزيز ثقة المرأة بنفسها مما تمخض عن تطور ثقافي وعلمي أنال المرأة حقوقها وقضى جُل أوطارها.

**الكلمات المفتاحية:** التنمية ، المرأة، الحماية ، الأدب ، التمكين ، الخلفاء العباسيون ، المجتمع ، السياسة.

### توطئة

مما يحسن التنبيه إليه أنّ المرأة هي مَنْ تُأطد أركان الأسرة وتُرسخ دعائمها، وهذا الأمر يسهم بصورة مباشرة إسهامًا لا يُستهان به في إصلاح المجتمع أو إفساده، وعلى الرغم من ذلك اختلف موقف المجتمع من المرأة \_ فيما يخص مكانتها وفعاليتها \_ من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي اختلافًا كبيرًا؛ إذ لم تحظ المرأة بمكانة سامقة في الشعر الجاهلي فتعرضت للتهميش حينًا وللوآد حينًا آخر، ولا جَرَم أنّ الإسلام أعلى محل المرأة وسان حقوقها وجعلها درة مكنونة، بيد أنّها \_ لُقديتها \_ عُولمت ك رِيحانة وليست بقهرمانانة تُدير دفة الحكم وتسوس البلاد، أما في العصر العباسي؛ فقد حظيت بمكانة عظيمة الأهمية في الجوانب الاجتماعية والسياسية وصار لها القِدح المعلى في إدارة شؤون بعض البلدان والتحكم في الخلفاء أنفسهم، إلى الحد الذي حدا بهارون الرشيد إلى الاعتراف \_ شِعْرًا \_ بأن هناك أنسات ملكنّ عنانه واقتدرنّ على التحكم به وفرض طاعتهن عليه (يُنظر: الرشيد، ١٩٩٨م، ٤٨، ابن عبد ربه، ١٩٨٤م، ٧ / ٤٩ \_ ٥٠، التادلي، ١٩٩١م، ١٩٩١م، ٢ / ١٠٤٤ \_ ١٠٤٥)، وهذا غيض من فيض.

ولا مِرَاء في أنّ الجهر بأمر ما مراراً متأت من أطراد حدوثه، فضلاً عن أنّه ينم عن تقبل المجتمع لهذا الأمر أو التمهيد له، ومن الجدير بالذكر أنّ مَنْ يُسَلِّم بأمر ما سيعتاد حدوثه ولا يستغرب أو يتعجب من تكرار ذلك، مثلما يعتاد مَنْ يشاهد لأول مرة نجمة في السماء وقت الغروب ومنّ ثَمّ يشاهد أنّجماً تترى تلوح في الأفق إلى أنّ ثَملاً السماء نُجوماً عندما يجنّ الليل، ثَمّ تزداد أَلْفته إياها شيئاً فشيئاً حتى يمسي إحساسه وقت رؤيتها أقرب إلى الاستئناس منه إلى الاستغراب أو الاستهجان.

ومهما يكن من أمر فإنّ التطور في التفكير الجمعي للمجتمع العباسي ابتداءً من قمة جبل السلطة إلى سفحها تمخّض عن تغييرات سياسية ومجتمعية لا تحصى أنجحت طلبة المرأة وأنتها سُؤلها وأجلّت شأنها.

ومن الجدير بالذكر أننا قسمنا البحث على مقدمة وفقرتين:

تحدثنا في المقدمة عن تطور مكانة المرأة في العصر العباسي والعوامل التي أسهمت في ذلك، ومن ثَمّ فصلنا القول في الفقرة الأولى في ازدياد نفوذ المرأة وعلو شأنها في الجانب السياسي وتحدثنا عن دوافع ذلك ونتائجه، وبعد الانتهاء مما سبق تكلمنا عن تطور تأثير المرأة وفعاليتها في الجانب الاجتماعي وتأثير شعر النساء ومواهبهنّ الفذة في المجتمع بأسره، وفي الختام أوجزنا بحثنا بخاتمة ترشد القارئ الكريم إلى وضع اليد على الخطوط العريضة في البحث وتحضّه على الاستزادة وقراءة البحث برمته.

### الجانب السياسي

لعل من البديهي أن نقول: إنّ سياسة المجتمع تتغير بتغير ثقافته عن طريق التلاقح الثقافي بين الشعوب أو التغييرات الكبيرة في سياسة الدولة المتأتية من تغير الأسر الحاكمة، وأحياناً تجري رياح هذه التغييرات بما تشتهي سفن الطبقات المستضعفة أو الجنس الذي لم يتمتع بالنفوذ والسلطان، بشكل مساوقٍ لحول الجنس الآخر وطوله، وهذا ما ظفرنّ به نسوة العصر العباسي؛ إذ " تمتعت المرأة في العصر العباسي بوسط وافر من الاحترام والتقدير سواء داخل الطبقة الحاكمة في داخل قصور الخلفاء، أو عند سائر الناس، وكانت الأسر الحاكمة تمثل قمة المجتمع فقد كانت المرأة تتمتع بالثراء العريض

والسلطة والنفوذ، كما تمتعت بكل حقوقها ولم تنقص منها شيئاً، كما قدرها لها الإسلام وشريعته" (عبد الباقي، ٢٠١٨م، ٣٥)، ومكّن لها في البلاط العباسي، وفضلاً عن ذلك أدى تواصل عليّة القوم وسرّاتهم مع نساء من قوميات وثقافات متباينة إلى تقبّل آراء نساّتهم والأخذ بها \_ في الأغلب \_ وإشراكهن في إدارة دفة الحكم \_ أحياناً \_، ولا أدل على ذلك من الخلاف الذي وقع بين الرشيد وزوجته زبيدة بنت جعفر؛ إذ " ووقع بين الرشيد وبين زبيدة الشركة المتعده فتهاجرا فعمل داود بن رزين مولى عبد القيس شعراً وهو:

زمنٌ طيّبٌ ويومٌ مطير ... هذه روضة وهذا غدير  
إنّما أمّ جَعْفَرٍ جنة الخلد ... د رضاها والسخط منها السعيرُ  
أنت عبْدٌ لها ومولى لهذا الـ ... خلق طرّاً وليس في ذا نكيرُ  
فاعتذر يا خليفة الله في الأر ... ض إليها وترك ذاك كبيرُ

فصار إليها عندما وقف على الأبيات وسألت عن سبب مجيئه فعرفت، وأوصلت إلى داود مائة ألف درهم في وقتها وأضعافها بعد ذلك" (ابن خلكان، ١٩٧١م، ٣١٥ / ٢)، وهذه الأبيات إن ذلت على شيء فإنّما تدل على أنّ زبيدة كانت لها اليد الطولى في إدارة دفة الحكم؛ نظراً إلى انتمار الرشيد بأمرها وحرصه على قضاء أوطارها وورغائبها، فإن شاءت كدّرت عيشته وإن شاءت جعلت حياته نعيماً وخيراً ودعة؛ فهي ملكة على الملك الذي تطاوعه البرية كلها، متحكّمة بمنّ يهابونه الجبارة ويجلونه الأباطرة، وهو ملك على غيرها ومملوك لها \_ حبّاً وإكباراً \_، فضلاً عن أنّ مصيره إليها واعتذاره يؤكّدان إقراره وتسليمه بما في ثنايا الأبيات، ومن المُحال أن يجرؤ شاعر على إنشاد الخليفة شعراً يُشاكل الأبيات التي ذكرناها آنفاً، إن لم يكن على يقين مما نظمته، كما أنّ إكرام زبيدة إياه وإجزالها العطاء يبينان لنا أن سلطان الهوى والعشق أعز من سلطان الملوك وأكثر نفوذاً وهيمنةً.

لا جرّم أنّ هذه المكانة السامقة ليست متأتية من كرم المَحْتِد وطيب الأعراق وحسب؛ وإنما تضافرت معها الحصافة والكياسة مع حذق وحسن سياسة، وآية ذلك ما فعلته زبيدة غبّ مقتل ولدها محمد الأمين "ولما دخل المأمون بغداد دخلت زبيدة عليه وقالت أهنئك بخلافة قد هنأت بها نفسي عنك قبل لقائك، ولئن كنت فقدت ابناً خليفة ولدته فقد عوضني الله خليفة لم ألدّه وما خسر من اعتاض مثلك ولا ثكلت أم ملأت راحتها منك وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وإمتاعاً بما عوض فقال المأمون ما يلد النساء مثل هذه فما أبقت بعد هذا الكلام لبلغاء الرجال وحشا فاها درا" (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٤ / ١١٩)؛ لِحسن بيانها وجزالة خطابها، مع مطابقة كلامها لمقتضى الحال بشكل قل نظيره، ولا غرابة في بلوغ من احتاز هذه الخصال الكريمة ذرى المجد والعلواء، وحفاظه على رفيع منزلته وعلو كعبه في حضور مؤازريه و غيابهم؛ إذ "عامل المأمون أم جعفر زبيدة بنت جعفر - أم الأمين - بالإكرام والبر والتلطف، ورتب لها في كل سنة مائة ألف درهم جدداً، يحملها إليها ويتعاهد زيارتها، وحكى أبو الفرج الأصفهاني أن المأمون أغفل حمل المال إليها في بعض السنين، فتقدمت إلى أبي العتاهية أن يعمل أبياتا تذكره بها فقال:

زعموا لي أنّ في ضرب السنه ... جددا بيضا وصفرا حسنه  
سككا قد أحدثت لم أرها ... مثلما كنت أرى كل سنه

فلما قرأ المأمون الشعر قال: إنا لله - أغفلناها وتقدم يحمل ذلك إليها" (النويري، ١٤٢٣هـ، ٢٢ / ١٨٩)، وهذه الحادثة فيها ما فيها من الدلائل الدامغة التي تُفصّح عن حصافة السيدة العباسية وحسن سياستها، واقتدارها على اقتطاف الثمار من أيكّة المجد والسؤدد طوال حياتها.

مما يحسن التنبيه إليه أنَّ المرأة العباسية ساوقت الأمراء والولاة في السلطان والسطوة؛ إذ يقصد بعضهم الشعراء من كل حذب وصوب، فيجزلن لهم العطاء ويصلنهم بالهبات العظام، وهذا الأمر حدا ببعض الشاعرات إلى الانخراط في سلك الشعراء وانتهاج منهاجهم، مثلما فعلت الشاعر الحجاء بنت نصيب حينما مدحت العباسة بنت المهدي قائلة (الأصفهاني، (د.ت)، ٢٣/٢٠):

أتيناك يا عباسة الخير والحياء ... وقد عَجَفْتُ أذُنُ المهارى وكَلَّتْ  
وما تَرَكْتُ منا السُّنُونَ بَقِيَّةً ... سِوَى رِمَّةٍ مَنَّا مِنَ الجَهدِ رَمَّتْ  
فقال لنا مَنْ ينصَحُ الرَّأيَ نَفْسَهُ ... وقد وَلَّتِ الأموالُ عِنا فقلَّتْ  
عليك ابنة المهدي عُوذِي ببابها ... فَإِنَّ مَحَلَّ الخَيْرِ في حَيْثُ حَلَّتْ

فأنت لو أنعمت في هذه الأبيات لتبين لك أنَّ نفوذ بعض النساء العباسيات يضارع نفوذ رجالهم وبيزه أحياناً؛ فهي رافلة بالعز والسلطان، مشاركة الرجال في ميادين السلطة كلها \_ ما خلا قيادة الجيوش\_، يقصدها العُفاة وطلاب القرى من كل فج عميق؛ نظراً إلى استطارة شهرتها وبعد صيتها، فمن دخل قصرها مبتئساً مُعديماً خرج منه مبتهجاً موبسراً، وهذا ما فعلته الممدوحة التي أكرم الشاعر أيمًا إكراماً و"أمرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب فقالت الشاعرة:

أغنيَّتِي يابنة المهدي أَيُّ غِنَى ... بأعجربين كثيرٍ فيهما الورقُ  
من ضرب تسع وتسعين مُحَكَّكَةً ... مثل المصابيح في الظلماء تأتلقُ  
أما الحسودُ فقد أمسى تغيُّطه ... غمًا وكادَ برجع الرِّيقِ يَحْتَنِقُ

وذو الصداقة مسرورٌ بنا فرحٌ ... بادي البشارة ضاحٍ وجهه شروقٌ" (الأصفهاني، (د.ت)، ٢٣/٢٠).

يتبدى لنا من هذه الأبيات أنَّ الله \_ جلَّ في علاه\_ قد مكن للمرأة العباسية في البلاط وآتاه من كل شيءٍ مُنيفٍ سبباً؛ فهي الوجه الآخر للملك الطلق اليبين والمصرع الثاني لباب العطاء، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على " أنَّ الدور السياسي الذي قامت به المرأة العربية الحرة في العصر العباسي يُشير إلى رصانة التدخل السياسي " (السروجي، ٢٠١٦م، ٦٦)، الذي اضطلعت به وارتضاء ملوك بني العباس ذلك وإقرارهم به قولاً فعلاً.

ومن المفيد التذكير بأنَّ المأمون قد حدا حذو أبيه \_ هارون\_ في تمكين المرأة وإعلاء شأنها، وفاقه في تمكين الجواري بُلَّة الحرائر؛ إذ " كان المأمون يهوى جارية من جواريه يقال لها: تتريف، فبعث إليها ليلة خادماً يأمرها بالمصير إليه، فجاءها الخادم، فقالت: لا والله، لا أجيؤه، فإن كانت الحاجة له فليصر إلي، فلما استبطأ المأمون الخادم أنشأ يقول:

بعثتك مشتاقاً ففرت بنظرةٍ ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنَّ  
وناجيت من أهوى وكنت مقرباً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى  
ورددت طرفاً في محاسن وجهها ... ومتمعت باستمتاع نغمتها أذنا  
أرى أثراً منها بوجهك ظاهراً ... لقد سرقت عينك من حُسنها حُسنا

فقال الخادم: لا والله يا سيدي، إلا أنها قالت كذا وكذا، فقال: إذاً والله أقومُ إليها" (ابن منظور، ١٩٨٤م، ١٤/١١٨)، والعجب كل العجب من صنعه هذا الصنيع أمام خادمه؛ فلو كان بينه وجاريته لاستغناه وألفناه، غير أنَّ حادثة كهذه تأخذ بصبغنا إلى التيقن من اطراد حدوثها إلى الحد الذي جعل المأمون غير مكترثٍ باطلاع الخدم وإحاطتهم خبراً بأفعال كهذا

الصنيع، وهذا السلوك الاعتيادي \_ فيما يرى المأمون\_ من قبل رأس الهرم في البلاط العباسي، يُفصح لنا عن ظفر الجواري العباسيات بقدر لا يستهان به من السطوة والفاعلية، مما يسمو بهن أحياناً إلى رُتبة الحرائر وينيلهن قصب السبق أحياناً أخرى.

ليس بمستغرب قط أن يتوارث ملوك بني العباس تمكين المرأة وإعلاء شأنها؛ إذ إنَّ ما يراه الإنسان أمامه في حادثة سنه يظل ماثلاً في صومعة أفكاره وخياله حتى يبُلِّغ أشدَّه ويطر شاربه، فينخرط في سلك آبائه \_ لاشعورياً\_، على غرار ما فعله المتوكل العباسي حين استماعه لإنشاد ما نظمته جاريته (فُضِّل)؛ عندما " أمر المتوكل بأن تضرب مضاربة على القاطول، وتحدرك هناك ويقوم شتوية على القاطول، فقالت فضل الشاعرُ:

قالوا لنا أن بالقاطول مشتانا ... ونحن نأمل صنع الله مولانا

والناس يأترون الغيب بينهم ... والله في كلِّ يومٍ مُحدِّثٌ شانا

رب يرى فوق ملك العالمين له ... ملكاً وفوق ذوي السلطان سلطانا

وغنت فيه عريب، فلما أخذ النبيذ في المتوكل غنته بهذا الصوت فطرب، وأمر بإبطال ما كان عزم عليه، وقال: إذا كرهتم هذا كرهناه" ( أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٤م، ٧١)، ولا جرم أن الأوامر الملكية تصل من أدنى البلاد إلى أقصاها ويرن صداها في الأسماع؛ وتبعاً لذلك سوف ينتشر خبر نقضها انتشار النار في الهشيم، فيكون مدعاة لتساؤل الناس وتحريمهم الأسباب، مما يبين لنا التطور الجلي في تمكين المرأة العباسية سياسياً وازدياد سطوتها وتحكمها في الملوك بتقديم الزمن وتعاقب الملوك.

### الجانب الاجتماعي

لعل من البديهي أن نقول: إنَّ مَنْ يمتلك زمام القوة والمنعة؛ سيَسْبِرُ الآخرَ كيفما شاء وحيثما أراد جاعلاً إياه رهناً إشارته، يطيعه طاعة الظل لحركة الغصن، وفي الوقت نفسه نجد أن هذه الطاعة العمياء متسمة بالخور وكونها على شفا حفرة من الفناء والانمحاق؛ لأنَّ ديمومة هذه الحال مقترنة بتقصص المتسلط لبأس العز وإقامته تحت ظلال السلطة، وكلما تساقطت أوراق السطوة والمجد من دوحه عظمتها؛ تضاعل ضياء قنديل سموه؛ فارتفعت كفة ميزانه لانخفاض كفة الآخر إلى الحد الذي قد تتساوى فيه الكفتان أو تبرز إحداها الأخرى.

ولا نغالي إذا قلنا إنَّ: منزلة النساء العباسيات قد دنت وتدلَّت وبنَّت \_ أحياناً\_ مكانة الرجال و" تبعاً لذلك ارتقت المرأة في المجتمع حتى تسنى لها الحصول على جميع حقوقها كاملة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، ونتيجة لتمتعها بتلك الحقوق فقد أثرت في المجتمع بشكل كبير وفي شتى المجالات" (مولخير، ٢٠١٩م، ١٩)، مما حدا بها إلى الإعراب عن حُظوتها ورفيع ما اكتسبته من منزلة اجتماعية سامقة فعلاً وقولاً؛ لأنَّ محصول الاكتفاء بالأقوال والأماديح لا يُسمن من جوع ولا يُنقَع غليلاً، نظرًا إلى أنَّ الشعر الذي يعد الوسيلة الإعلامية الفضلى إذ ذاك تركز مدائحه الذائعة الصيت على التنويه بالأفعال والإشادة بأصحابها وتأكيد أهمية جود اليد بجزيل العطاء أو بسفك دماء العدى، والحط في الوقت نفسه من شأن جود اللسان الذي يبني قلاعاً من الرمال فتحطمها أمواج الأيام بعد هُنيهة، على غرار قول أحدهم لظمان: اشرب من ماء قريتي حتى تتقع غليلك، مع علمه أن قريته لا ماء فيها البتة، فضلاً عن أن مَنْ لم يمتلك تاريخاً سلطوياً يضرب بجرانه تليد المجد ويُقيم تحت رواق العز؛ سيعمل جاهداً رغبةً في مجارة الآخر ومساماته، كما عملت زبيدة زوج الرشيد حينما " بنت الأبار والبرك والمصانع بمكة المشرفة، وحفرت العين المعروفة بعين المشاش بالحجارة، وأجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة المشرفة وأنفقت عليها ألف ألف منقار وسبعمائة ألف منقار وأدخلتها مكة وفرقتها في شوارعها" (ابن الضياء، ٢٠٠٤م، ٣١٥)، فأدت أفعالاً جمَّة المنافع قد تفوق بعض مآثر الملوك

والسلاطين غير مكتفية بزكي مغرسها وكريم محبها ومحبها، وكأنها ترى \_ فيما نظن \_ أن خلود ذكر الإنسان يقوم على عدة دعائم قد يكون شرف السلالة أحدها وقد يُعني اتسام المرء بمزية ما عن ذلك، مما حدا بها إلى الرغبة في جعل نفسها المرأة التي تتزين الأسمار بحديثها والحديث عنها، وقد نالت نصيباً من ذلك، حين غدت فاكهة مجالس الشعراء؛ إذا أَلْعَزَّ شاعر في اسمها فأجابته الآخرُ قائلاً: (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٤ / ١٢٠)، (من الخفيف):

هُوَ لَعَزُّ فِي ذَاتِ خَدْرِ مَنِيعٍ ... نَزَلَتْ فِي الْعُلَى بِقَصْرِ مَشِيدٍ  
هِيَ أُمُّ الْأَمِينِ ذَاتُ الْمَعَالِي ... مِنْ بَنِي هَاشِمِ ذَوِي التَّأْيِيدِ  
أَنْتَ كُنْتَ الْهَادِي لِمَعْنَاهُ حَقًّا ... حِينَ لُوْحَتْ لِي بِذِكْرِ الرَّشِيدِ  
دَمْتَ تَهْدِي إِلَيَّ كُلَّ عَجِيبٍ ... مَا عَلَيَّ فِي حَسَنِهِ مِنْ مَزِيدِ

مما لا يقبل أي ريب أن مَنْ يُذَكِّرُ لَعَزًّا هُوَ مَنْ فَشَا ذَكَرَهُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَأَشِيرَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ وَأَكْثَرَ النَّاسِ مِنْ تَقْرِيبِهِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي جَعَلَهُ عَلَمًا فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، يُفْضِي النَّزْرَ الْيَسِيرَ مِنْ ذَكَرِهِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، كَمَا تُنْبِئُ خِيُوطُ الْفَجْرِ الْبَيْضِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ، وَهَذَا مَا كَانَتْ عَلَيْهِ سَلِيلَةُ الْمُلُوكِ الَّتِي شَفَعَتْ فِضَائِلَهَا بِحِصَابَاتِهَا وَذَوَقَهَا الْأَدْبِي السَّلِيمُ الَّذِي يَنْمُ عَنْ مَعْرِفَةِ لَا يَسْتَهَانُ بِهَا بِالشَّعْرِ وَالْأَدَبِ؛ وَخَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ، مَا "أوردته بعض الرواة عن شاعر أنشد زبيدة بنت جعفر شعراً قال فيه:

أزبيدة ابنة جعفر ... طوبى لزارك المئاب  
تعطين من رجلك ما ... تعطي الأقف من الرغاب

فجعل عبيدها يقرعون رأسه فقالت: دعوه فإنه أراد خيراً فأخطأ، وهو أحب إلينا ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم: شمالك أندی من يمين فلان فظن أن هذا مثل ذلك" (ابن بسام، ١٩٧٩م، ٧ / ٣٤٨ - ٣٤٩)، ويبدو لنا أنها عمدت إلى العمل على ترصيع تاج سطوتها بجوهرة النقد الأدبي فجمعت بذلك شتات السلطة من أطرافها، ومثلت التطور في تمكين المرأة خير تمثيل.

ومما لا بُدَّ من قوله: إِنَّ نَبَاهَةَ شَأْنِ سَيِّدَةٍ مَا وَتَسَامُعِ النَّاسِ بِهَا يَحْضَانُ الْأَخْرِيَاتِ عَلَى حَذْوِ حَذْوِهَا وَسُلُوكِ دَرِبِهَا الَّذِي سَارَتْ فِيهِ فَنَالَتْ بُغْيَتَهَا، وَكَأَنَّهَا عَبَّدَتْ طَرِيقَ الْمَجْدِ لِبَنَاتِ جَلْدَتِهَا وَأَنَارَتْ سِرَاجَ الطَّمُوحِ فِيهِنَّ، وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جَمِيلِ صِنَائِعِ شَعْبِ وَالِدَةِ الْمَقْتَدِرِ بِاللَّهِ الَّتِي "لم يكن لامرأة بعد زبيدة بنت جعفر من الخَيْرِ مَا كَانَ لَهَا فَإِنَّهَا كَانَتْ مَوَاطِبَةَ عَلَى صَلَاحِ حَالِ الْحَاجِ وَإِنْفَازِ خَزَانَةِ الطِّبِّ وَالْأَشْرَبَةِ إِلَى الْحَرَمَيْنِ وَإِصْلَاحِ الطَّرِيقِ وَالْحِيَاضِ وَالْأَبَارِ وَكَانَ يَرْتَفِعُ إِلَيْهَا مِنْ ضِيَاعِهَا الْخَاصَّةِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَتَنَصَّدَقُ بِأَكْثَرِهَا وَوَقَفَتْ وَقُوفًا كَثِيرَةً عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ" (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٦ / ٩٨)، لتنال رضا الله العظيم وثناء الأنام ومحبتهم؛ لأن الإنسان ميال إلى مَنْ يَغْمُرُهُ بِجَزِيلِ عَطَائِهِ وَسَابِغِ نِعْمِهِ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ الْأَكْثَرُ نَفُودًا وَسُلْطَانًا، فَالْمَحَبَّةُ مَكْنُونَةٌ فِي قَرَارَةِ النَّفْسِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الْبَارِئُ وَصَاحِبُهَا، الَّذِي قَدْ يُبْدِي لِلْآخِرِينَ نَقِيضَ مَا يَشْعُرُ بِهِ إِنْ اقْتَضَتْ الضَّرُورَةُ ذَلِكَ.

وَلَا جَرَمَ أَنَّ السُّلْطَةَ الْمُتَأْتِيَةَ مِنَ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ الْمُحَضَّةِ أَعَزُّ قَدْرًا وَآكْثَرُ رِسْخًا مِنَ الَّتِي تَمُ فَرَضُهَا غَلَابًا وَاغْتِصَابًا، مِمَّا فَتَحَ بَابَ تَمَكِينِ الْمَرْأَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ؛ إِذْ إِنَّ "دور المرأة لم يقتصر على مشاركتها في العمل السياسي، بل تعداه إلى دورها الاجتماعي، إذ برز اهتمامها بالحياة المدنية ... كاهتمامها بالمشاريع العمرانية، وتكالبها على جمع الثروة الكبيرة، وإلى دورها الثقافي، مع اكتسابها العلوم والمعرفة والأدب والشعر" (السروجي، ٢٠١٦م، ٢)، وتبعاً لذلك انخرطت في سلك الأدباء؛ فدنت وفاقته ملكتها \_ أحياناً \_ ملكاتهم الأدبية فحققت بذلك تمكينا وتطورا في سلكها المنحى الأدبي جعلها تجاري الشعراء وتفحهمهم على الرغم مما عرفوا به من تفوق عقلي وتاريخي في هذه الصناعة والنسج اللفظي، ونظرا

إلى أنّ الشعر أسمى الصناعتين وأرفعهما؛ حرصت السيد العباسية على أن تصبح أديبة ذائعة الذكر وناقذة بعيدة الصّيت، وليس ذلك بغريب؛ إذ " روي أنّ رسول عليّة بنت المهدي ... خرج يوماً إلى الشعراء، فقال: تقرئكم سيدتي السلام، وتقول: من أجاز هذا البيت منكم، فله مائة دينار، فقالوا: وما هو؟ فأشد:

أنيلي نوالاً وجودي لنا ... فقد بلغت نفسي الترقوة

فبرهم مسلم بن الوليد الصريح فقال:

وإني لكالدلو في حبكم ... هويت إذا انقطعت عرقوه

فخرجت له المائة دينار" ( ابن ظافر الأزدي، ١٨٦١م، ٤٧-٤٨)، ونستخلص مما ذكر أنّها حصافة المرأة العباسية في اتخاذ القرارات الصائبة التي ترفد أنهار مجدها وسموها بالماء النмир، وتبيلها قصب السبق.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرغبة في اجتلاب المديح لها الفدح المعلن من رغائب السلاطين والملوك؛ فهو يرسم للممدوح وجهًا حسن المنظر يُلقي الحب في قلوب رعيته، فيغدون إثر ذلك جيشًا يُطاعن عنه باللسان بدلاً من السنان؛ لأنّ الشهرة سلاح خفي يقود الناس طوعًا ويحقق مآرب صاحبه بسرعة لا تُضاهي، مؤمنًا له انتصارًا معنويًا قد يُمهّد الطريق للانتصارات على أرض الواقع، فعلى الرغم من أنّ هارون الرشيد يُعد واسطة عقد ملوك بني العباس؛ فإنّ الكياسة والتصرف في فنون الشعر مكنًا للأميرة عليّة من جعل هارون خاضعًا لرغباتها، وآية ذلك ما صنّعه حينما " أهديت إلى الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال، فخلا بها أياما، وأخرج كل قينة من داره ... واتصل الخبر بأم جعفر فغلظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها، فأرسلت إليها عليّة: لا يهولنك هذا، فوالله لأردنه إليك، وأنا أعمل شعرا، وأصوغ فيه لحنًا، وأطرحه على جوارِي، فلا تدعي عندك جارية إلا بعثت بها إلي، وألبسيهن فاخر الثياب والحلي ليأخذن الصوت مع جوارِي، ففعلت أم جعفر ما أمرتها فلما جاء وقت العصر لم يشعر الرشيد إلا وعليّة قد خرجت عليه من حجرتها، وأم جعفر قد خرجت من حجرتها معهما زهاء ألفي جارية من جوارِيهما وسائر جوارِي القصر، وكلهن في لحن واحد هزج صنّعه عليّة:

مُنْقَصِلٌ عني وما ... قَلْبِي عَنْهُ مُنْقَصِلٌ

يا قاطعي اليومِ لِمَنْ ... نويتُ بعدي أنْ تَصِلَ

فطرب الرشيد، وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر وعليّة، وهو على غاية السرور" (ابن عساكر، ١٩٩٥م، ٧٣/٣١٦)، ولا مشاحة في أنّ الاستقبال والابتهاج برهنا على وفاء عليّة بوعدا وعلو كعبها فضلاً عن عظمة ثقة المرأة العباسية بنفسها إذ ذاك؛ إذ إنّ اقتدار بعضهن على التحكم بكبار الملوك وصرفهم لكل وجه حيث ومتى شئن، هو تحطيم لما رُسم في أذهان بني جلدتهن من صور تسربلت فيها المرأة ثوب الاستخذاء والخضوع، ووضع حجر الأساس لمملكة يسمو بها شأن النساء \_اجتماعيًا\_ فيشاطرن سرّة الرجال مكانتهم المنيقة، ومن ثمّ يطمحن إلى تقويض الفروق المجتمعية بينهنّ والرجال تقويض الخيام؛ لسكّب ثمالة الأفكار التي تُصعّر قدر المرأة العباسية في بئر النسيان، وبدئ عصر جديد تُقيم فيه النساء تحت ظلال العز، و" لم تُخصص المكانة والاحترام لنساء الخلفاء وبنات البلاط فحسب؛ وإنّما حازت عليها كل امرأة قامت بفرض شخصيتها وتمكّنت من إثبات وجودها" (مولخير، ٢٠١٩م، ٧)؛ مما حصّ المرأة \_ إذ ذاك\_ على عدم الاكتفاء بمجارة الآخرين أو معارضتهم والتّوق إلى التميّز عن النّظرَاء ويدهم فيما برعت به من فن معنوي أو مادي إلى الحد الذي يجعلها مؤنلاً يقصده أقرانها أو من هم دون رُتبتها أملاً في الظفر ببعض محاسنها، ودونك ما ذكره يحيى بن الخصب حينما قال: كنت عند فضل الشاعرة إذ استأذن عليها إنسان فأذنت له، وقالت: ما حاجتك؟ قال: تجيزين مصراع بيت من شعر، قالت: ما هو؟ قال:

مَنْ لِمَحَبِّ أَحَبَّ فِي صِغَرِهِ ... فَصَارَ أَحَدُوثَهُ عَلَى كَثِيرِهِ

فَقَالَتْ:

مِنْ نَظَرِ شَفَقِهِ وَأَرْقَاهُ، ... فَكَانَ مَبْدَا هَوَاهُ مِنْ نَظَرِهِ

لَوْلَا الْأَمَانِي لَمَاتَ مِنْ كَمَدِهِ، ... مَرُّ اللَّيَالِي يَزِيدُ فِي ذِكْرِهِ

مَا إِنَّ لَهُ مُسْعِدٌ فَيُسْعِدُهُ ... بِاللَّيْلِ فِي طَوْلِهِ وَفِي قِصْرِهِ" (ابن السراج، (د.ت)، ١ / ٣٢٢)،

والحق أن هذه الأبيات تتم عن حصافة الشاعرة وبراعتها في نسج الكلام وإيراد المعاني المتشاكلة أو المتضادة وبنائها في ثانيا أبياتها دون تكلف أو صنعة مؤكدة أن البداة والارتجال يملكها الرجال والنساء على حد سواء.

ويبدو لنا أن ما حثَّ الإنسان \_ الشاعر في الأغلب \_ على طلب الإجازة هو تفوق سابق للشاعرة على بعض الشعراء أكسبها شهرة مستطيرة أذكت فيه نار الطموح إلى إفحامها والانتصار للداته وأخلاته، وعلى الرغم من ذلك رجع من بغيته بخفي حنين؛ مما عزز الإشارة إليها بالبنان أيًا تعزير وأرجح كفتها وبنات جنسها على لفيف من الشعراء، "وليس ذلك فحسب فقد كُنَّ يتتقن بثقافات العصر، وعملن على شيوع الثقافة؛ إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار، وينظمن شعراً بديعاً" (شوقي ضيف، (د.ت)، ٩١)، يُضاهي جمال المرأة وتُحاكي ألفاظه رقتها، وهذا الإبداع يضع سهمها لا ينقص في كنانة نفوذ المرأة العباسية وهيمنتها، يُملكها شيئاً افتقرت إليه \_ إلى حد ما \_؛ فغدت كمن كان يشتري الورد ثم امتلك حدائق مؤنقة مكللة الأرجاء بالورد النفيس، وتقلدت نتيجة لذلك سيفين، هما حُسام الملاحه وحُسن المنظر، وجراز حلاوة الألفاظ وطلاوتها، ولا يُخامرنا ريب في أن ملاحه القسمة وصباحة الوجه سيف مُنصّلت تبرّ النساء الرجال في امتشاقه من غمده وإدراك الحاجات به، ولا أدل على ذلك مما روي عن الشاعر الحسناء مُتيم التي كان يهواها الشاعر عبد الصمد بن المعدل "وكانت لا تخرج إلا منتقبة، فحكى المُبرّد وغيره: أنها قدمت يوماً إلى ابن عبيد الله بن الحسين العنبري القاضي، فاحتاج إلى أن يشهد عليها، فأمر بها أن تسفر ففعلت؛ فقيل لعبد الصمد: لو رأيت متيم وقد أسفرها القاضي لرأيت شيئاً عجباً! فقال:

وَلَمَّا سَرَتْ عَنْهَا الْقِنَاعَ مُتَيْمٌ ... تَرَوَّحَ مِنْهَا الْعَنْبَرِيُّ مُتَيْمًا

رَأَى ابْنَ عَبِيدِ اللَّهِ وَهُوَ مُحَكَّمٌ ... عَلَيْهَا لَهَا طَرْفًا عَلَيْهِ مُحَكَّمًا

وَكَانَ قَدِيمًا كَالْحِجَابِ عَابِسًا ... فَلَمَّا رَأَى مِنْهَا السَّفُورَ تَبَسَّمًا

فَإِنْ يَصِبُ قَلْبَ الْعَنْبَرِيِّ فَقَبْلَهُ ... صَبَا بِالْيَتَامَى قَلْبَ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمًا

فبلغ قوله يحيى بن أكثم؛ فكتب إليه: عليك لعنة الله! أي شيء أردت مني حتى أتاني شرك من البصرة! فقال لرسوله: قل له: متيم أقعدتك على طريق القافية" (النويري، ١٤٢٣هـ، ٥ / ٦٨ - ٦٩، زاهد، ١٩٧٠م، ١٦٨ - ١٦٩)، وهذا الأمر إن دلَّ على شيء فإنما يدل على امتلاك بنات حواء مزية لا تضاهي تفتح لهن ما أوصد من أبواب المعالي بطرفة عين دون جهد وعناء، وتهب بعضهم سلطة مستترة تُملِكهنَّ عنان سرّة القوم ودوي الوجاهة والسلطان، وعلى الرغم من تسليم المسلمين كلهم ومعظم الناس بقوامة الرجال على النساء وتأكيد الإله العظيم ذلك بقوله في كتابه الكريم: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" (القرآن الكريم، (سورة النساء/ ٣٤)، كانت المرأة العباسية تتحكم عن بعد أو قرب وبإسرار وإعلان \_ إلى حد ما \_ بالملوك والأمراء والشعراء والقضاة؛ نظرًا إلى ما "قد جعل الله في تركيب العباد من ... إلف النساء" (ابن قتيبة، ١٩٥٨م، ١ / ٧٥)، واستهوائهنَّ فهنَّ مرآة روح الرجال وملادهم النفسي حينما تُحقيق بهم نوازل الدهر وصروفه، فيبوحون لهنَّ بما تمور به أنفسهم ويجيش في صدورهم، ولا مرآة في أن

مَنْ يَفْتَحُ كُنُوبَ قَلْبِهِ لِأَحَدٍ مَا يَقْرَأُ لَهُ مَكْنُونَهَا سَوْفَ يَسْتَمِعُ لِأَرَائِهِ أَيُّمَا اسْتَمَاعٍ وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَحْمَلِ الْإِكْبَارِ وَالتَّقْضِيمِ؛ وَإِذَا بَلَغَتِ الْمَرْأَةُ الْعَبَّاسِيَّةَ رُتْبَةَ سَامِقَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لِنِسَاءِ الْعَرَبِ الْوَصُولَ إِلَيْهَا، وَاتَكَأَتِ عَلَى أَرَائِكِ الْقُلُوبِ قَبْلَ تَبَوُّءِ عُرُوشِ السُّلْطَانِ وَأُولِي الْوَجَاهَةِ وَالسُّمُومِ، فَخَلَقَتْ بِسْمَاءِ الْفَخْرِ وَكُلَّلتِ بِتَاجِ الْعِزَّةِ الْفَعَّاءِ.

### الخاتمة

اتضح من خلال خوض غمار تطور حماية المرأة العباسية وتمكينها أن هناك تحولات جوهرية في منزلة المرأة وفعلها المؤثر في الجانبين السياسي والاجتماعي، وأبرزت الدراسة العديد من النتائج فاصطفينا منها ما يأتي:

- تمتع المرأة بمكانة سياسية واجتماعية مرموقة أخرجتها من عباءة التبعية وجعلتها فرداً مائزاً يضارع سزاة الرجال وذوائبهم.
  - إقرار بعض الخلفاء والأمراء بتحكيم نسيات من الحرائر والإماء بهم وبقراراتهم السياسية وتأكيدهم هذا الأمر مراراً شعراً ونثراً، مبرهنين على ما حدث من تطور ملحوظ مكن بعضهن من إدارة دفة الحكم بصورة مستترة في الأغلب.
  - ظهور نساء ثريات اقتصادياً وأدبياً؛ مما سما بهنَّ إلى معالي الأمور وحباهنَّ التأثير في المجتمع على الصعيدين الملموس والمحسوس بوساطة إنفاق الأموال الطائلة خدمة للمجتمع وإتحاف الشعراء بسني الهبات ليروجوا أفكارهنَّ التي تقضي جلَّ أوطارهنَّ.
  - امتداح الشعراء والشواعر بعض الأميرات ممن أصبح لهنَّ بلاطهنَّ الخاص الذي يقصده الأدباء بله الشعراء، فضلاً عن تمتع نخبة من الشاعرات بهذه المزية وإقبال أرباب الفصاحة والبيان عليهن لمجاراتهن.
  - امتلاك النساء سلطة أدبية متأتية من تفوق نفر من الشواعر على لفيف من الشعراء؛ وإذا امتشقت المرأة صارماً لطالما رها به الرجل واختال مفتخرًا، لاسيما حينما يُمزق به ثوب كبرياء المرأة وتمتعها.
- تشير هذه النتائج إلى أن العصر العباسي شهد تطوراً لا يُستهان به في حماية المرأة وتمكينها أسهم في إعلاء محل النساء وجعل الكثير من أحلامهنَّ يقيناً غبَّ إبتائهنَّ سؤلهنَّ، والأخذ بأيديهنَّ إلى منتهى طلبهنَّ.

## فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٧٩م.
- ابن السراج، جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت - لبنان، (د.ت).
- ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي المكي، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٧١م.
- ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي، بدائع النبأه، جمال الدين، القاهرة - مصر، ١٨٦١م.
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٤م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٥٨م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، ط١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤م.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، (د.ت).
- التادلي، الحماسة المغربية، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجزائري، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ١٩٩١م.
- الرشيد، ديوان هارون الرشيد، هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، جمع وتحقيق: د. سَعدي ضنأوي، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٨م.
- زاهد، جمع وتحقيق، زهير غازي زاهد، شعر عبد الصمد بن المعدل، مطبعة النعمان، النجف - العراق، ١٩٧٠م.
- السروجي، بهيجة محمد علي السروجي، التطور التاريخي لدور المرأة في العصر العباسي (١٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٧٥٠ - ٩٤٥م)، أطروحة دكتوراه، جامعة بيروت العربية، كلية الآداب قسم التاريخ، بيروت - لبنان، ٢٠١٦م.
- شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام، تاريخ الأدب العربي (٤) العصر العباسي الثاني، ط٢، دار المعارف، القاهرة - مصر، (د.ت).
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م.
- عبد الباقي، نهلة أحمد عبد الباقي أحمد، دور المرأة في الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ / ٧٥٠ - ١٢٥٨) دراسة تاريخية تحليلية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزيرة، كلية التربية، قسم الجغرافيا والتاريخ، ٢٠١٨م.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٢٣هـ.